هل تنهض مخطوطاتنا بتاريخنا

بقلم يوسف اسعد داغر

امين دار الكتب اللبنانية

☆

عرفنا في مقالنا السابق دور المحفوظات العامة وما يقوم عليها من الاهمية والفوائد كما استعرضنا اهم دور المحفوظات في الشرق، وهي الموجودة اليوم في مصر وفي تركيا ورأينا كيف ان مجاميع هامة من هذه المحفوظات مصونة بصورة علمية ومنسقة فنياً في دور المحفوظات الكبرى في الغرب.

وها نحن نتابع الكلام في هذا الموضوع الخطير فنتساءل اليوم هل بامكان محفوظاتنا الشرقية النهوض بتاريخنا العربي والاسلامي وهو لعمري موضوع خطير الشأن نلفت اليه انظار كبار الاساتذة في التاريخ والاجتماع والاقتصاد في الجامعات والكليات الذين يعنون بمشاكل تاريخنا القومي العام في الشرق العربي.

اهم ودائع محفوظات تاريخنا الشرقي والعربي والاسلامي

التاريخ علم باصول يقوم قبل كل شيء، على المصادر والمراجع الاصيلة قديمة او حديثة اساسية او فرعية والا استحال علم التاريخ، بغير هذه الاصول الى اعمال الخيال، تعصف به المخيلة الشرود والمراد بـ « المصدر او المستند » كل اثر يتركه الانسان الماضي محيزاً منه الفكر

وبين القمر ٢٤٩٣٠٠ ر ٤٠٠٠ نحو ١ على ٦٢

حينئذ « ترمح » هذه الغواصة الفضائية على هوى ركابها وهم يقولون : يا ما تغزلنا فيك يا عفريت الليل وانت تتدلل وتشمخ . ها نحن واصلون اليك يا شقي

ولكن لا . لا يظن ركاب هذه الغواصة التي ربحت السباق انها نجت فلا تلبث ان تصدمها جاذبية الشمس المتسلطة على الارض ولعلها تضطرها ان تدور في مدار شمسي كانها سيار يدور حول الشمس

دعنا من هذا الظن فقد يكون لها بقوة اندفاعها نجاة من سيطرة جاذبية الشمس. ولكنها لا تلبث ان تصطدم بجاذبية القمر نفسه على بعد ٥٠ الف ميل منه. جاذبية القمر على سطحه نحو ١ على ٦ من جاذبية الارض على سطحها . ومهما لطفت ورأفت بالصاروخ فلا بد ان تجذبه رغم انفه ولا بد ان تنقض على القمر انقضاضاً هائلاً فينسحق عليه هباء منثوراً .

اذاً فعلى مصمم الصاروخ المركب ان يحسب هذا الحساب ويجعل فيه جهازاً (فرملة) ترده الى الوراء لكي يهبط رويداً وينزل الى القمر نزول الطائرة في المطار .

اذا بقي هذا الصاروخ مندفعاً بسرعته الاستمرارية اي بنسبة ٧ اميال بالثانية ففي اقل من ٩٠ ساعة يدخل في منطقة جاذبية القمر الخطرة . فعلى المهندس ان يجعل له قوة عكسية بسرعة ميل في الثانية على الاقل لكي يأمن خطر الانقضاض الساحق والا فسرعته وجاذبية القمر يجعلان هبوطه داهية الدواهي .

فاذا نجح في انزاله كالطائرة الى المطار يخرج العلماء منه سالمين الى جبال القمر وفيافيه واوكاره وفوهات براكينه الخامدة وعلى افواههم كمامات مشبعة بالاوكسجين لكيلا يختنقوا .

ابحثوا ايها السادة في اخاديد القمر واوكاره ومغاوره لعلكم تجدون فيها مياهاً وهواء وزراعة وازهاراً وحشرات وحيوانات قمرية صغيرة . والا فابحثوا فيه عن الراديوم والاورانيوم .

نسأل الله ان يعيدكم الينا سالمين لكي تخبرونا عن اخينا القمر الخبر اليقين .

القاهرة — نقولا الحداد

والعمل .

فالمؤرخ لعصور الاجيال الوسطى، في الغرب، يرتكز قبل كل شيء على وثائق دور المحفوظات وهي صكوك وعقود او عهود اصيلة صحيحة شرعية انما وضعت لمقتضيات الحياة العامة او الخاصة وقضاء لمستلزماتها فيما يتعلق منها بالادارة والقضاء والاعمال والترسل وهي وثائق تزخر بالمعلومات لا تحابي ولا تأخذ بالوجوه نزيهة مجردة الى اقصى حدود النزاهة والتجرد تؤيد وقائع الامور اثباتاً او نفياً، وتعضد سلباً او ايجاباً الاحداث التي يرغب المؤرخ في تقريرها.

هذا في الغرب اما في الشرق فعلى المؤرخ الذي يتعرض للبحث في التاريخ الاسلامي، مثلاً او لبعض وجوه التاريخ في بعض البلدان الشرقية، ان يعرف ان ليس امامه ما هو امام زميله في الغرب من ودائع المحفوظات. وهذا لا يعني قط ان الباحث الذي يعنى بتاريخ الشرق من الوجهة الاسلامية مثلاً لا يمكن ان يعتمد على شيء من هذه الاصول التي يعتمد على مثلها المؤرخ في الغرب. هنالك لعمري بعض المحفوظات الهامة في تاريخ الشرق العربي والاسلامي نذكرها فيما يلي بحسب تفاوت درجة اهميتها وخطر ودائعها.

المحفوظات العثمانية : تتضمن هذه الودائع مجموعاً هائلاً من الوثائق الرسمية على اختلاف انواعها، تضاهي من حيث كثرتها واهميتها، اهم ودائع المحفوظات في الغرب، وقد مرّ معنا في المقال السابق، كيف ان السلطات المسؤولة في تركيا الجمهورية، آخذة بسبيل تنظيم هذه الودائع التي تعد بمئات الالوف واعداد فهارس ميسرة لها يصح الركون اليها للاستفادة على قدر واسع من كنوز هذه المحفوظات.

مجموعة المحفوظات المصرية : جاء وصفها مطولاً فيما تقدم من الكلام، في القسم الاول من هذا البحث وهو المنشور في العدد السابق من هذه المجلة.

مجموعة من الوثائق الهامة بعضها من الرقوق ومعظمها من اوراق البردي : عثروا عليها في مصر، وهي وثائق تتعلق بالاعمال الادارية والمالية والشرعية، او رسائل خاصة تمتّ الى التاريخ الاسلامي بسبب وثيق بين القرن الثامن والحادي عشر للميلاد.

مجموعة من الودائع الهامة مصونة بحرص وعناية في دور المحفوظات في الغرب ولا سيما في البندقية وجنوى والفاتيكان وباريس وروما وبرشلونة وفلورنس وليس من يجهل علاقة هذه المدن التي كانت ردحاً طويلاً من الدهر حواضر لجمهوريات ناشطة استأثرت في الاجيال الوسطى، بتيسير وتسيير العلاقات التجارية والاقتصادية التي شدّت الشرق الى الغرب في تلك الاثناء. ومعظم هذه المصادر وثائق ديبلوماسية او تقارير القناصل والمعتمدين والممثلين الذين كانت تقيمهم تلك الجمهوريات في المدن الساحلية الواقعة شرقي حوض البحر المتوسط وثغوره الكبرى وقد اثبتنا في بحثنا الماضي اهم هذه الثغور وما يتعلق بها من ودائع المحفوظات المكنوزة بصورة علمية فنية رائعة في اهم دور المحفوظات الفرنسية في باريس.

وقد درس السيد « ادورد غارنيه » Ed. Garnier اهمية هذه المحفوظات في بحث مستفيض عنوانه :

Musée des Archives Nationales

نشرته له المجلة المعروفة **Bibliothèque (de L'Ecole des chartes)** وذلك في مجلدها ٤١ **T. 41**

نسخ مختلفة لنصوص رسمية اثبتها بعض المؤرخين العرب : وهذه النصوص كثيرة العدد الا انها قليلة التنويع تعود الى نواح محدودة من نشاط الهيئة الاجتماعية الشرقية في هذه الحقبة، لا يطمئن المؤرخ كثيراً الى صحتها او امانتها لما بينها من الوثائق الموضوعة والمنحولة.

قيمة هذه الودائع واهميتها من الوجهة التاريخية

ليس من يرتاب قط بضخامة المحفوظات الشرقية المخزونة بكل اعتناء في بعض البلدان الشرقية (تركيا—مصر) وفي الاقطار الغربية التي نوهنا بذكرها اعلاه. وقد يشك الكثيرون من كبار الاخصائيين مع ذلك بقيمة هذه الوثائق وامكانياتها العلمية باعتبارها اداة صالحة ووسيلة من وسائل العلم الحديث للنهوض بتاريخنا العربي والاسلامي. فالبون بين ودائع المحفوظات هنا وهنالك في الشرق والغرب شاسع والفرق عظيم من حيث التنوّع والوفرة والشمول في المكان والزمان. فاذا ما اراد المؤرخ ان يضع دراسات ناهضة بتاريخ بعض الخلافة الاسلامية (العباسيين مثلاً) او ببعض الدول الاسلامية (السلجوقيين) او ببعض الاقطار التي تقع في صلب القضايا التاريخية المبحوث عنها (سوريا—العراق—ايران)، اسقط في يد الباحث وحال دون الوصول الى ما يعنيه نقص او عجز كلي في المصادر الاصلية.

فالمحفوظات الشرقية تفتقر مجاميعها الى هذا التنويع اذ لا يخرج مجموع ما لدينا منها عن وثائق رسمية، مفيدة وايم

الحق للغاية اذا ما اراد الباحث ان يؤرخ لبعض الخطط الاسلاميه في الادارة العامة الا ان هذه المحفوظات نفسها تتركنا في حيرة من امرنا اذا ما رمنا خوض الموضوعات التاريخية والقضايا العامة في هذا التاريخ من جميع النواحي التي يجب ان يتدبرها المؤرخ ليأتي عمله مستجمعاً شرائط البحث العلمي. فالوثائق المتعلقة بامور مالية الدولة الاسلامية واقتصادياتها قليلة للغـاية. كذلك نفتقر الفقر كله الى تلك المصادر الخاصة المتعلقة بالاحوال الشخصية والامور الاجتماعية والمدنية والعمرانية. فالمحفوظات الباقية المتخلفة عن ادارة الوقف، معظمها حديث العهد لا ينهض علمياً وبصورة فنية بهذه الغاية، ولا يمكن لها بالتالي ان تسد العجز البادي الذي يشل حركة الباحث ويحد من جهده ويصد من عملية التقميش المتوجبة عليه. وهكذا يرى المؤرخ نفسه امام «عينيات او نماذج» من الوثائق والاصول في التاريخ الشرقي الاسلامي على التخصيص قد ينقص من دلالتها ومما يقوم فيها من حجة ودليل شيء ليس بالقليل من القوة والمتانة، فيما لو كانت الوثائق الخاصة بموضوع ما، اكثر عدداً واوفر واشمل.

سبب هذا النقص

قد يتساءل القارىء الكريم كما تساءل المؤرخ مما عسى ان يكون الباعث على هذه القلة في المستندات الاسلامية في الشرق وما هي الاسباب التي جعلتها قليلة التنوع، وامر ندرتها غريب جداً، لا سيما والكل يعرف، في المشارق والمغارب ان المستوى العلمي والثقـافي في الشرق، طيلة الاجيال الوسطى، كان صعيده اعلى بكثير من المستوى الذي نرى الغرب عليه اذ ذاك. فالكتابة والخط وما اليهما من دنيا القلم والانتـاج الفكري والقراءة والمطالعة والتأليف، كل هذا كان عندنا في الشرق اكثر انتشاراً وابعد غوراً وارحب افقاً مما كان عليه الغرب اذ ذاك. ودليلنا على هذا الزعم، هذا الوفر وهذا اليسر في متعة الفكر، وهذا الفيض من مئات المكتبات العامة والوف خزائن الكتب الخاصة التي قامت في الممالك الاسلامية عربيها واعجميها، وما كانت تزخر به من عيون الآثار الفكرية التي حفظت اسماءها وان لم تحفظ بقاءها فهارس الكتب القديمة امثال فهرس ابن النديم وكشف الظنون لحاجة خليفة. فما هو السر يا ترى في امر ندرة المحفوظات الاسلامية التي تتعلق بتاريخ الشرق، وما هي الاسباب التي تجعل من هذه الناحية قسمة المؤرخ للشرق الاسلامي ضئزى بينما يرى صنوه الغربي نفسه في فيض مبسط من المستندات والاصول، وهما يؤرخان، هنا وهنالك للاجيال الوسطى؟

ولعل السبب الاكبر والباعث الوحيد على هذه القلة يقومان قبل كل شيء في طبيعة الخطط السياسية في الاسلام وفي كنه الانشاءات التي طلع بها على الجماعة، كما يقوم بعضها في مميزات تاريخه العام.

وهكذا نرى ان خلو العهد الاسلامي من هيئآت مستقلة وخلوه من نظام اقطاعي يقول بالتابعية او يعمل بها، وخلوه من حريات يُقطعها المدن والقصبات والحواضر الكبرى، جاعلاً منها بلديات لها شيء من الاستقلال، وانصهار كل اولئك في بوتقة الدولة وجسمها الموحد، فلا عجب ان لا يبقى بعد هذا، من آثار مدنيته، سوى محفوظات رسميـة هي اوراق الدولة واصحاب السلطان.

ثم من صفات التمدن الاسلامي وطابعه المميز ان رغبة صاحب السلطان فيه، خليفة كان او اميراً او سلطاناً، لا تكفي وحدها لانشاء حق. فالخليفة او الامير او السلطان مقيد في مزاولته الحكم، بنصوص فقهية وشروط شرعية صريحة تعتمد على وحي الهي منزل هو القرآن او الحديث. فصاحب السلطان هو المنفذ او القـائم على تنفيذ احكام الشريعة. فالحق العيني او الشخصي لا يقوم اصلاً في وثيقة رسمية او في صك او في عهد يقطعه صاحب السلطان، بل هو ما ترسمه الشريعة الاسلامية نفسها. وفي هذا ما فيه من محدد للوثائق الخاصة، حاصر لها، مقلل من وجودها مخفف من تنوعها.

من يتدبر تاريخ فرنسا مثلا يرى ان السلطة الشرعية قامت بلا انقطاع في شخص الملوك والاسر المالكة التي تعاقبت على الحكم، منذ عهد الاسرة الكارولنجية حتى قيام الثورة الفرنسية الكبرى، اي من سنة ٧٦٣–١٧٨٩ فكل هـذه الاسر الملكية التي تعاقبت على العرش الفرنسي ظهرت بمظهر الوريث الشرعي لما تقدمها من الاسر المالكة الاخرى، وتبنت، بالتالي ما تركته من صكوك وعقود وحقوق او شبه حقوق شرعية او رسمية كما تبنت كل مطلب عن سابقتها الاستمساك به، كما اوجبت على نفسها المحافظة على جميع الوثائق والمستندات التي تقيم حقاً او تؤيد مطلباً.

والحال لا نرى شيئاً في تاريخ التمدن الاسلامي من هذا التواصل والترابط الذي تنتظم معه عقد السلالات الملكية المتتابعة على الحكم في الغرب عامة وفي فرنسا خاصة فتعاقب الحكومات في سير المدنية الاسلامية تم على نوع من التقاطع وعدم التبني. فلم تكن السلطة الجديدة الواصلة للحكم

– البقية في الصفحة ٥٣ –